



شهر رمضان.. منهج التربية المتكامل



إن منهج الإسلام في التربية منهج ثري، يتعامل مع الإنسان بوصفه كلا مركبا في ذاته، وهو تعامل لا يغفل جانباً من جوانب الشخصية الإنسانية، ولا يرجح كفة جانب على آخر، فهو يتعامل مع الكائن البشري بفطرته التي خلق عليها، ومن ثم لا يفرض عليه شيئا يتنافى مع هذه الفطرة، أو يطلب منه شيئا لا يتناغم مع تركيبه الأصيل. قال تعالى: ﴿فَطَرَنَّا اللَّهَ إِلَهِي فَطَرَنَّا النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيُّمُ﴾ (الروم: ٣٠).

الإنسانية، حينما تدعم الجوانب الإيجابية، وتدحض الجوانب السلبية، في وتيرة متناغمة وسمفونية إيمانية عذبة يعرفها المسلم في رمضان.

تربية الجسد

تعنى التربية الإسلامية بالحفاظ على الجسد، بوصفه أحد الضرورات الخمس التي ينبغي الحفاظ عليها في الشريعة الإسلامية، فالإسلام يلزم المرء بوقاية جسمه، وحفظه من كل العلل والأفات التي يمكن أن تصيبه،

قد نصبت، وساحة فضل قد اتسعت، وذلك من خلال ما شرعه الله فيه من صيام وقيام وزكاة، وكل ركن من هذه الأركان كفيل بتربية إسلامية ناضجة على مثال فريد.

وتتجلى جماليات شهر رمضان في كونه يقدم للعالم منهجا متكاملًا يشمل جميع جوانب شخصيته ففيه تربية للمروح وتربية للجسد وتربية للعقل وتربية للضمير وتربية اجتماعية على نحو أصيل وفريد للشخصية المسلمة، وهي خطوط تتلاقى في النفس

شهر رمضان فرصة سانحة أمام كل مسلم لتطبيق ذلك المنهج، والاستفادة منه على النحو الذي أراد الله لعباده، فهو لحظة جليلة لتربية النفس، ومعالجة عيوبها، والاعتسال من أدرانها، من خلال دعم نقاط الإيجابية، وتلافي نقاط السلبية في الشخصية.

وغير قليل من يغفل هذه الفرصة دون أن يستغلها بما يحقق نفعاً لذاته ومجتمعه على حد سواء، فهذا الشهر الفضيل يفتح ذراعيه مؤذنا بسوق خير

والامتناع عن كل ما يضره، ويخطئ من يظن أن رمضان هو شهر الموائد المنزلية، والتكالب على الأطعمة والمشروبات التي يستعيز بها عن مدة صيامه، فالإسلام لا يدعو إلى مثل هذه المظاهر البراقة الخادعة، إنما الدين توسط واعتدال، بلا غلو ولا تفريط.

ولقد نبه الرسول الكريم ﷺ إلى خطورة الامتلاء حيث يقول: «ما ملأ آدمى وعاء شراً من بطن، بحسب ابن آدم أكالات يقمن صلبه، فإن كان لا محالة فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه» (رواه الترمذي).

ولا شك أن للصوم فوائد جسدية عديدة، ففيه راحة للجهاز الهضمي ساعات كل يوم، وفي رمضان يحرق الجسم بعض مخزونه من الدهون، وضرر الدهن في الجسم مؤكد، وخاصة في الشرايين، ومن المؤكد علمياً أن القليل من الطعام خير من الكثير، وقد يتوهم البعض أن الصوم يقلل نسبة استفادة الجسم من الغذاء، وهذا الوهم لا صحة له، لأن الصوم عبارة عن تغيير عادات الطعام ومواعيدها خلال شهر رمضان، ويجمع الأطباء على فوائد الصوم الجسدية للناس الأصحاء، أما المرضى فلهم أحكامهم الخاصة وأبيع لهم الفطر^(١).

تربية الروح

الروح.. تلك الطاقة الخفية التي لا نعرف كنهها ولا طريقة عملها، وهي وسيلتنا للاتصال بالله، وهي مهتدية إلى الله بفطرتها، لكنها قد تضل وتتحرف، وتتغيش رؤيتها حينما تتراكم عليها سبل المادية والإغراق في الشهوانية، ومن ثم تبقى في حاجة ماسة كي تشف وتجلو غبارها، مما

يجعلها مهياة لهذا الاتصال اللطيف بخالقها.

ومن هنا يسبح الجو الإيماني لشهر رمضان لتلبية مطالب الروح، ونبذ الشهوات، والكف عن الرذائل، تلبية من شأنها أن تدعم الصلوات بالخالق الواحد، حيث يكون المسلم في شغل دائم بما يكتب لصومه القبول، والابتعاد عن كل مؤثر قد عملية القبول هذه، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ

اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ (سورة المائدة: ٢٧).
تربية العقل

إن الصيام بما يمليه على المسلم من الامتناع عن شهوتي البطن والفرج، والإقبال على قراءة القرآن ليفتح الباب أمام العقل للولوج في عوالم التدبر والتفكير في ملكوت الله، وهذا التدبر وصفه ابن قيم الجوزية بأنه رأس الأمر وعاموده، حيث يستولي على الفكر ويشغل القلب، فإذا صارت معاني القرآن مكان الخواطر من قلبه، وجلس على كرسيه، وصار له التصرف، وصار هو الأمير المطاع أمره، فحينئذ يستقيم سيره، ويتضح له الطريق، وتراه ساكناً وهو يباري الريح^(٢).

ولا شك أن هذا فرصة قوية لإعمال العقل والبحث في مجالات العالم الأصغر وهو النفس والعالم الأكبر وهو الكون، بما يكفل عقلاً ناضجاً باحثاً عن الحقيقة، وتقديم الخير الذي ينفع البشرية كلها، وبناء عقلية نافعة تعمر لا تدمر، وتبني لا تخرب، وتبذل عن الإنسانية سوءاتها التي خلقتها عقول لا تعي مهمة الاستخلاف، وصيانة النفس البشرية.

تربية المجتمع

إن فلسفة الصوم العميقة لخير دليل على هذا البعد الاجتماعي الذي

عناه المشرع، فالمسلمون أفراد أسرة واحدة، يتعاونون على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، آخذين بيد بعضهم في السراء والضراء، يعطي غنيهم فقيرهم، ويساعد واجدهم محتاجهم، ويحمل قويهم ضعيفهم، وهي سمة تظهر جلية في رمضان، وتتجلى لنا بوضوح وقت النواثب والأزمات، وهذا هو جوهر التكافل الاجتماعي الذي عناه الإسلام.

ولله در شوقي حين يقول في حكمة الصيام: «الصوم حرمان مشروع، وتأديب بالجوع، وخشوع لله وخضوع، لكل فريضة حكمة، وهذا الحكم ظاهره العذاب وباطنه الرحمة، يستثير الشفقة، ويحض على الصدقة، يكسر الكبر، ويعلم الصبر، ويسن خلال البر، حتى إذا جاع من ألف الشعب، وحرم المترف أسباب المتع، عرف الحرمان كيف يقع، والجوع كيف ألمه إذا لنزع».

وشهر رمضان في مجتمعاتنا العربية دائماً ما يذكرنا بهذا البعد الثري، فنرى صوراً عديدة، ومواقف مجيدة لهذه اللحمة والترابط المجتمعي، فتتباين صور العطاء والبذل والسخاء والإطعام والصفح والإكرام، لتصب في بوتقة البناء الاجتماعي، بما يحقق نهضة تنموية ومجتمعية رائدة.

وختاماً تتلاقى خيوط التكوين البشري في نسق فريد تسوقه لنا تجليات الصيام في شهر رمضان مؤكدة على نمط فريد ومنهج رباني شامل لأبعاد التربية للإنسان المسلم..

الهوامش

١- مجلة رابطة العلماء السوريين الالكترونية: مكانة الصوم في التربية الإسلامية.

٢- ابن قيم الجوزية: زاد المهاجر، تحقيق سيد إبراهيم (ص: ٤١).